السَّيْخُ أحمدُ الرِّفاعيُّ
قطبُ الأولياءِ
(512 ـ 578هـ)

الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ، قطبُ الأَولياءِ، السَّيدُ الشَّريفُ، مرشدُ الإِسلامِ وصاحبُ مَنقبَةِ تَقبيلِ يَدِ الرَّسولِ الأَعظمِ ﷺ، سليلُ بيتِ النُّبوَّةِ ومعدنِ الرِّسالةِ، وارِثُ مُضمرِ العلمِ العِلويِّ، شَيخُ الطَّريقَةِ والحقيقَةِ، العارفُ والغَوثُ الكبيرُ، مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ الدُّعاةِ المُصلحينَ الَّذينَ اجتباهُم المَولى ﷻ وحباهُمْ بِالعلمِ والعرفانِ، وأَكرمَهُمْ بِدرجةِ البرِّ والإِحسانِ في عبادتِهِ، وأَيَّدَهُمْ بِكراماتِ الإِحسانِ إِلى خلقِهِ، وسَلكوا في سبيلِ الأَنبياءِ والأَولياءِ الصَّالِحِيْنَ تَسعَى بينَ أَيديهِمْ أَنوارُ التَّجلي الأَعظم، فَارْتَقَى في المراتبِ العِلويَّةِ في رَوضةِ الصِّديقينَ والشُّهداءِ تَحدوهُ ظِلالُ العنايَةِ الإِلهيَّةِ، ومَكثَ عُمراً في أهلِ الأَرضِ، يَذبُّ عَنْ طريقِ السَّالكينَ إِلى اللهِ وساوسَ الشَّيطانِ، وهواجسَ النَّفسِ الأَمَّارةِ بِالسُّوءِ، وأمانيَ العقلِ الشَّاردِ عَنِ الإِيمانِ، أَسكرَ قُلوبَ المُحبينَ والذَّاكرينَ بِإِيصالِهِمْ إِلى عَتباتِ المَعارفِ القُدسيَّةِ، حَتَّى لُقِّبَ بِـ «أَبي العِلمينِ» أي: علمِ الظَّاهرِ والبَاطنِ.

وكما أَفاضَ اللهُ عليهِ بِفيوضاتِ عُلومِ الطَّريقَةِ والحَقيقَةِ، فَقَدْ أَفاضَ عليهِ بِمعارفِ

الدِّين والشَّريعَةِ، فَكانَ إماماً مُحدِّثاً فَقيهاً، وواعِظاً مُحنَّكاً حافظاً لِمواعظِ ورَقائِقِ الأَوَّلينَ السَّابقينَ مِن السَّلفِ الصَّالحِ، تَلقَى كَلماتُهُ في نفوسِ سامعيهِ استجابَةً لِلسَّيرِ عَلى طريقِ الهدايَةِ والاستقامةِ، فَهدَى اللهُ بِهِ كثيراً مِمَّنْ ضَلوا عَنْ طاعتِهِ، وأَعلَى بِهِ منزلةَ كثيرٍ مِمَّنْ جَدُّوا في الإقلاعِ عَنْ مَعصيَتِهِ، وحَبَّبَ في الدِّين بِهِ كثيراً مِمَّنْ بَعُدَتْ قُلوبُهُمْ عَنْ مَحبَّتِهِ، وكانَ دليلاً لِلحيارَى إِلى مواردِ جَنَّتِهِ، ومُعيناً لَهُمْ عَلى إِقامةِ حدودِ شَريعتِهِ.

كما كانَ رضي الله عنه مُمتثلاً في سُلوكِهِ وأَعمالِهِ لأَخلاقِ وفَضائِلِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ، يُغيثُ المَلهوفَ، ويَمشي في حاجةِ السَّائِلِ، ويُعينُ عَلى نوائِبِ الدَّهرِ، ويُساعدُ الأَرملةَ والمسكينَ واليَتيمَ، وكَذلِكَ كانَ يَفعلُ معَ العُميانِ والمَرضَى والعُرجانِ والعجائِزِ، حَتَّى إِنَّهُ كانَ يَقضي حوائِجَ النَّصارَى واليَهودِ الَّذينَ يَقصدونَهُ، فَشرحَ اللهُ بِسَببِ ذَلكَ قُلوبَ كثيرينَ مِنهُمْ إِلى الإِسلامِ فَدخلوا في دينِ اللهِ، وانضمُّوا إِلى مِلَّةِ التَّوحيدِ وقافلةِ النُّورِ والإِيمانِ عَلى يَديهِ، ورُبَّما قَدَّمَ خدمَتَهُ لِلنَّاسِ، والإِحسانَ إِليهِمْ عَلى العِبادةِ والذِّكرِ، بَلْ كانَ يَجتهدُ في ذَلكَ كَاجتهادِهِ في التَّعبُّدِ والتَّبتُّلِ إِلى رَبِّهِ ﷻ، ويَرَى أَنَّهُ بَلغَ عِندَ رَبِّهِ تلكَ المَقاماتِ العليَّةَ المَحمودةَ بِسببِ خدمةِ عبادِ اللهِ ومُساعدتِهِمْ، فَكانَ رضي الله عنه يَقولُ: «وَصلْنا إِلى ما وَصلْنا إِليهِ بِالشَّفَقَةِ عَلى عِبادِ اللهِ».

وكان يقولُ: «إذا رأيتُ يتيماً يَبكي يَتَقلقَلُ ـ أَي: يَتأَلَّمُ ـ كلُّ عضوٍ مِنِّي».

ومِنْ ثمَّ ليسَ بِدعاً مِنَ الأَمرِ أَنْ يُكرمَهُ ربُّهُ الإِكرامَ الأَوفَى، فَأَيَّدَهُ بِأَعظمِ ما يُكرمُ بِهِ عالماً عابداً مِنْ أَوليائِهِ، ورَدَّ رَسولُ اللهِ ﷺ عَليهِ سَلامَهُ عَلى مَسمعِ الأَشهادِ، ومَدَّ إِليهِ يَدهُ

الشَّريفَةَ عندَ قبرِهِ الشَّريفِ ﷺ، فَقبَّلَها وعادَتْ إِلى مَكانِها في القبرِ الشَّريفِ، عَلى مَرأَى مِنْ أُلوفِ النَّاسِ، وبِحضورِ كثيرٍ مِنْ عُلماءِ ومَشايخِ العالمِ الإِسلاميِّ.

❁ ❁ ❁

هوَ السَّيِّدُ الشَريفُ قطبُ الأَولياءِ الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ بنُ أَبي الحَسنِ عَليٌّ دفين بَغدادَ بنِ يَحيَى بنِ ثابتِ بنِ السَّيِّدِ حازمِ عليٌّ أَبي الفَوارسِ بنِ أَحمدَ بنِ عليٌّ بنِ الحسنِ بنِ رفاعةَ أَبي المَكارمِ الحسنِ المَكيِّ بنِ المهديِّ بنِ مُحمَّدِ بنِ الحسنِ بنِ الحُسينِ بنِ موسى الثَّاني بنِ الإِمامِ إِبراهيمَ المُرتضَى بنِ الإِمامِ موسى الكاظمِ بنِ الإِمامِ جعفر الصَّادقِ بنِ الإِمامِ مُحمَّدِ الباقرِ بنِ الإِمامِ عَليٌّ زَينِ العابدينَ بنِ الإِمامِ الحُسينِ سَيِّدِ الشُّهداءِ بنِ الإِمامِ عَليٌّ بنِ أَبي طالبٍ أَميرِ المُؤمنينَ كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ زَوجِ الطَّاهرَةِ فاطمةَ الزّهراءِ بنتِ رَسولِ اللهِ ﷺ سَيِّدةِ نِساءِ أَهلِ الجَنَّةِ أَجمعينَ.

وسُمِّيَ الشَّيْخُ أَحمدُ بِالرِّفاعيِّ نسبَةً إِلى جَدِّهِ أَبي المَكارمِ رِفاعَةَ بنِ المَهديِّ، وقيلَ: نسبةً إِلى بَني رِفاعةَ وهُمْ قبيلةٌ في العربِ، وكانَ أَبوهُ أَبو الحسنِ عليٌّ يُلقَّبُ بِالمغربيِّ نسبَةً إِلى كونِ أَصلهِ مِنْ أُسرةِ العَلويينَ الأَشرافِ الَّذينَ فَرُّوا إِلى بِلادِ المَغربِ مِنْ بَطشِ الخُلفاءِ، واستوطنوا هُناكَ.

هذا وقَدْ هاجرَ أَبو الحسنِ عَليٌّ المَغربيُّ مِنْ بِلادِ المغربِ ونزلَ العراقَ وسَكنَ قريباً مِنْ واسطَ في البَطائِحِ بِقريَةٍ يُقالُ لَها: «أُمّ عبيدةَ»، وتَزوَّجَ فيها بِأُختِ الشَّيْخِ مَنصورِ

الزَّاهدِ، ورُزقَ مِنها أَولاداً، مِنهُم الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ الكبيرُ، لأَنَّ الأَعاجمَ الَّذينَ تَتلمذوا في الطَّريقَةِ عَلى يَديهِ يُسمُّونَهُ: سَيِّدي أَحمد الكبير[1].

ولدَ الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ بِقريَةِ أُمِّ عبيدةَ مِنْ قُرَى البَطائِحِ في منطقةِ واسط في العراقِ سنةَ (512) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرعَ فيها مُحاطاً بِجوٍّ مِنَ الهُدَى والإِيمانِ في بيئةٍ دينيَّةٍ.

يَشتغلُ مُعظمُ أَهلِها بِالدِّين والطَّريقَةِ، تَدرَّجَ منذُ صغرِهِ مُرتقياً في سلكِ المَعارفِ الدِّينيَّةِ والرَّبَّانِيَّةِ، ولَمْ يَتجاوز السَّابعةَ مِنْ عمرَهِ، حَتَّى بَدأَ بِحفظِ القُرآنِ الكريمِ، فَأَتَمَّ حِفظَهُ خلالَ فترةٍ وَجيزةٍ عَلى يَدِ الشَّيْخِ المقرئِ «عَبدِ السَّميعِ الحَربوني»، فَتوفَّى والدُهُ بَعدَ عامٍ، فَكفلَهُ خالُهُ الشَّيْخُ مَنصورٌ البَطائِحيُّ، الَّذي أَدخلَهُ عَلى الإِمامِ العَلَّامةِ المُحدِّثِ «أَبي الفَضلِ عَليٍّ الواسطيِّ» المَشهورِ عندَ أَهلِ العِلمِ والطريقَةِ بِالشَّيْخِ الواسطيِّ، فَبرعَ الشَّيْخُ أَحمدُ عَلى يَديهِ بِالعلومِ النَّقليَةِ والعقليَّةِ وأحرزَ قصبَ السَّبقِ على أقرانِهِ، كما لَبسَ عَلى يَديهِ الخُرقةَ[2] في طريقَةِ أَهلِ الحقيقَةِ مِنَ الصُّوفيَّةِ، وأَجازهُ الشَّيْخُ الواسطيُّ بِجميعِ عُلومِ الشَّريعةِ والطَّريقَةِ، وهوَ الَّذي لَقَّبهُ (أَبا العِلمينِ) الظَّاهرِ والباطنِ.

وعَنْ هذا المَقامِ الَّذي أَحرزَهُ الشَّيْخُ أَحمدُ عَنْ شَيخِهِ، قالَ أَحدُهُمْ يَمدحُهُ: «أَبا العَلمينِ أَنتَ الفَردُ. . لَكنْ إِذا حُسبَ الرِّجالُ فَأنتَ حزبُ».

ومِمَّا يَدلُّ عَلى عُلوِّ مقامِ الشَّيْخِ أَحمدَ الرِّفاعيِّ، بِشارةُ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ بِهِ قبلَ

---

(1) النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تَغري بردى، والوافي بالوفيات للصفدي.

(2) الخرقة: عَباءة يلبسها أهل الطريقة من الصوفية كشعار للانتساب إلى الطريقة.

ولادتِهِ، فَقَدْ رَوَى بَعضُ أَهلِ العلمِ: أَنَّ خالَ الشَّيْخِ أَحمدَ، وهوَ الشَّيْخُ البازُ الأَشهبُ السَّيِّدُ الرَّبانيُّ مَنصورُ البَطائِحيُّ، رأَى في الرُّؤيا رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ لَهُ: «**بَعدَ أَربعينَ يَوماً تَلدُ أُختُكَ غُلاماً يَكونُ سَيِّدُ الأَولياءِ ـ في عَصرِهِ ـ كما أَنا سَيِّدُ الأَنبياءِ**».

❁ ❁ ❁

استغرقَ الشَّيْخُ أَحمدُ الرِّفاعيُّ حياتَهُ كُلَّها وهوَ يَقومُ بِجمعِ المَعارفِ الدِّينيَّةِ والوَهبيَّةِ (الشَّريعةِ والطريقةِ)، ويَنشرُها بينَ العِبادِ، ويَدعو إِلى سُلوكِ الطَّريقِ المُوصلِ إِلى اللهِ بِالعبادةِ والعَملِ الصَّالحِ، فانعقَدتْ كَلمةُ عُلماءِ وشيوخِ عصرِهِ عَلى عظمِ شَأنِهِ، ورفعةِ قَدرِهِ، كما أَفاضَ اللهُ عليهِ مِنْ لَدنهُ علماً خاصّاً حَتَّى رَجعَ مشايخُهُ إِليهِ وتَأَدَّبَ مُؤدبوهُ بينَ يَديهِ.

وقَدْ أَسَّسَ الشَّيْخُ أَحمدُ الطَّريقَةَ المَنسوبةَ إِليهِ المُسمَّاةَ بِالطَّريقَةِ الرِّفاعيَّةِ، وتَقومُ الطَّريقَةُ الرِّفاعيَّةُ عَلى العملِ بِمُقتَضَى الكتابِ والسُّنَّةِ، ثُمَّ أَخذِ النَّفسَ بِالمُجاهدةِ والمُكابدةِ، والإِكثارِ مِنَ الذِّكرِ وقِراءَةِ الأَورادِ، وذَلكَ وفقَ إِرشاداتِ الشَّيْخِ وتَوجيهاتِهِ، معَ ضَرورةِ التَّسليمِ والانقيادِ لهُ.

وكانَ الشَّيْخُ أَحمدُ حريصاً كُلَّ الحرصِ في حَضِّ مُريديهِ عَلى هَذِهِ المَبادىءِ والتَّعليماتِ، وأَنْ يَكونَ حالُهُمْ موافقاً لِحالِ السَّلفِ الصَّالحِ، وأَنْ يَلتزموا بِالكتابِ والسُّنَّةِ في كُلِّ أَحوالِهِمْ، وأَنْ يلبسوا ثَوبَ الوقارِ والتَّواضعِ واجتنابِ الجَفاءِ والتَّصَنُّعِ في الزُّهدِ، وتَعريَةِ النَّفسِ مِنَ الدُّنيا، وتَحمُّلِ البَلاءِ، وخدمةِ النَّاسِ.

وكانَ مِنْ أهمِّ وصاياهُ لِمُريديهِ وأَتباعِهِ: «مَنْ تَمشيَخَ عليكُمْ فَتَتلمذوا لَهُ، ومَنْ مَدَّ يَدَهُ إِليكُمْ لِتُقَبِّلوها فَقَبِّلوا رِجلَهُ، ومَنْ تَقدَّمَ عليكُمْ فَقدِّموهُ وكونوا آخرَ شَعرةٍ في الذَّنبِ، فَإِنَّ الضَّربةَ أَوَّلُ ما تَقعُ عَلى الرأسِ». وهذا كنايَةٌ عَلى تَجنُّبِ التَّكبُّرِ والتَّواضعِ لِلنَّاسِ.

ومِنْ أَقوالِهِ لِمُريديهِ وأَتباعِه: «عَظِّموا شَأنَ الفُقهاءِ والعُلماءِ كَتعظيمِ شَأنِ الأَولياءِ والعُرفاءِ، فَإِنَّ الطَّريقَ واحدٌ، وهَؤلاءِ ورَّاثُ ظاهرِ الشَّريعةِ، وحملةُ أَحكامِها الَّذينَ يُعلِّمونَها النَّاسَ، وبِها يَصلُ الواصلونَ إِلى اللهِ، إِذْ لا فائِدةَ مِنَ السَّعيِ أَو العَملِ عَلى الطَّريقِ المُغايرِ للشَّرعِ».

ولِذا فَأدبُ المُريدِ يَجبُ أَنْ يكونَ في متابعةِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ: «كُلُّ الآدابِ مُنحصرةٌ في مُتابعةِ النَّبيِّ قولاً وفِعلاً وحالاً وخُلُقاً، فَالصُّوفيُّ آدابُهُ تَدلُّ عَلى مَقامِهِ، زِنوا أَقوالَهُ وأَفعالَهُ وأَخلاقَهُ في ميزانِ الشَّرْعِ، يُعلمُ لَديكُمْ ثقلُ ميزانِهِ وخِفَّتِهِ».

وفي كتابِ «طبقاتِ الأَولياءِ»، أَنَّهُ سُئلَ عَن التَّصوُّفِ، فَقَالَ لِلسائلِ:

تَسأَلُنا عَنْ تَصوُّفِنا أَمْ تَصوُّفِكُمْ؟

فَقَالَ: يا سَيِّدي، كانَتْ مَسأَلةٌ فَصارَتْ اثنتينِ، اشرَحهُما لي.

فَقَالَ: أَمَّا تَصوُّفُكُمْ أَنتُمْ فَهوَ أَنْ تُصَفِّي أَسرارَكَ، وتَطيبَ أَخبارَكَ، وتُطيعَ جبَّارَكَ، وتَقومَ ليلَكَ، وتَصومَ نَهارَكَ، وأَمَّا تَصوُّفُ القَومِ، فَكما قيلَ:

لَيسَ التَّصوُّفُ بِالخِرَقِ ... مَنْ قالَ هذا فَقَدْ مَرقَ

إِنَّ التَّصوُّفَ يا فَتى ... حَرْقٌ يُمازجُهُ قَلق

والزَّاهدُ العابدُ عِندَهُ مَنْ تركَ كُلَّ شَيءٍ يشغلُ عَنِ اللهِ ﷻ.

❁ ❁ ❁

لا مريَةَ أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ الرِّفاعيَّ مَعدودٌ عِندَ العُلماءِ والفُقهاءِ المُتقدِّمينَ والمُتأَخرينَ، مِنْ أَولياءِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ، والدَّاعِينَ إلى اللهِ بِإِحسانٍ، المُؤيدينَ بِالكراماتِ والأَحوالِ المُستفيضَةِ بِالمَددِ الأَوفرِ، وإِنَّ مِنْ أَعظمِ الكراماتِ الَّتي أَيَّدَهُ اللهُ بِها، كرامةُ تَقبيلِ يَدِ النَّبيِّ ﷺ الشَّريفَةِ، هَذِهِ الكَرامةُ الَّتي تَناقَلَها أَعلامُ الطَّريقةِ الرِّفاعيَّةِ بِالتَّواترِ، ونَسبَ بَعضُهُمْ رِوايَةَ حكايَتِها إِلى الإِمامِ السُّيوطيِّ، في حينِ أَنَّ العُلماءَ المُتقدمينَ والمُؤَرِّخِينَ لَمْ يَذكروها البَتةَ، وأَنكرَ صحَّتَها أَهلُ العلمِ المُتأَخرونَ، لأَنَّها لَمْ تَثبتْ بِالطُّرقِ العلميَّةِ المَعهودةِ عندَ العُلماءِ، ونَحنُ نَذكرُها هُنا للاستئناسِ بِذكرِها، حيثُ نُظمَتْ فيها الأَشعارُ والقَصائِدُ الكَثيرةُ، وسارَتْ بِحكايَتِها وقَصِّها الرُّكبانُ في الماضي والحاضرِ، فَقَدْ زَعموا: أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ حَجَّ إِلى مكَّةَ سنةَ (555) هجريَّةً، وبَعدَ فراغِهِ مِنْ أَداءِ فَريضَتِهِ، يَمَّمَ وجهَهُ شطرَ المَدينةِ المُنوَّرةِ قاصداً زيارةَ قبرِ جَدِّهِ النَّبيِّ ﷺ، وقُبيلَ دخولِهِ إِليها تَرجَّلَ عَنْ ناقَتِهِ وخلعَ نعليهِ، ومَشَى حافياً، وعندما وَصلَ إِلى قَبرِ الحبيبِ المُصطفَى قالَ عَلى رؤوسِ الأَشهادِ: «السَّلامُ عَليكَ يا جَدِّي يا رَسولِ اللهِ. فَردَّ عليهِ النَّبيُّ مِنْ قبرِهِ الشَّريفِ: «**وعليكَ السَّلامُ يا ولدي!**» فَجثَا الشَّيْخُ أَحمدُ عَلى ركبَتيهِ، ثمَّ قامَ وبكَى وأَنَّ طويلاً وقالَ:

في حالةِ البُعدِ روحي كنتُ أُرسلُها ... تُقَبِّلُ الأرضَ عنِّي وهيَ نائبَتي

وهذِهِ دولةُ الأشباحِ قَدْ حَضَرتْ ... فَامدُدْ يمينكَ كي تَحظَى بها شَفَتي

فمدَّ له رسولُ اللهِ ﷺ يدَهُ الشَّريفةَ العَطرةَ مِنْ قَبرِهِ الأَزهرِ المكرَّمِ فقبَّلها في مَلأٍ يقرُبُ مِن تسعينَ ألفِ رجلٍ والنَّاسُ ينظرونَ اليدَ الشَّريفَةَ، وكانَ في المَسجدِ مَعَ الحُجَّاجِ عَددٌ مِنْ كبارِ العُلماءِ وفي مقدِّمتِهِم الشَّيْخُ عبدُ القادرِ الجيلاني، والشَّيْخُ عديُّ بنُ مُسافرٍ الشَّاميُّ، والشَّيْخُ حياةُ بنُ قيسٍ الحرَّانيُّ، عِلماً أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ الَّذي كانَ يَتواجدُ في دَرسِهِ خَمسةُ آلافِ مِحبرةٍ، وتَتكاثرُ حولَهُ جُموعُ المُريدينَ والأَتباعِ الَّذينَ يَتلقَّفونَ مِنهُ كُلَّ كَلمةٍ يَقولُها، ويَكتبونَ عَنهُ كُلَّ حالٍ أَو كرامةٍ، كانَ مِنْ أَشدِّ خَلقِ اللهِ مُحاربَةً لِلبدعِ والأَوهامِ والضَّلالاتِ، ورَفضاً لِلشَّطحاتِ الَّتي يَزعمُها بَعضُ أَتباعِ الطَّريقَةِ، وكانَ يَقولُ هاتفاً في أَصحابِهِ: «طَريقي دينٌ بِلا بدعةٍ، وهِمَّةٌ بلا كَسلٍ، وعَملٌ بِلا رياءٍ، وقَلبٌ بلا شُغلٍ، ونفسٌ بلا شَهوةٍ».

وكانَ يُحذِّرُ النَّاس مِنْ أهلِ الشَّطحِ والغُلوِّ ويقولُ: «هؤلاءِ قُطَّاعُ الطَّريقِ فَاحذَروهُمْ» وكان يكرهُ أصحابَ القَولِ بالحُلولِ والوحدةِ المُطلقَةِ الَّذينَ يقولونَ إنَّ اللهَ تَعالى يحلُّ بالعالمِ ويقولُ: «هؤلاء قومٌ أَخَذتْهُم البِدعَةُ مِنْ سُروجِهِمْ، إياكُمْ ومُجالَسَتَهُمْ».

عَلَى أَنَّ أَعظمَ كراماتِ الشَّيْخِ بِإجماعِ الأُمَّةِ، هوَ وقوفُهُ عِندَ حدودِ الشَّرْعِ، ونَهجُهُ طريقَ الاستقامةِ في أَحوالِهِ كُلِّها، ومَعلومٌ عِندَ أَهلِ العِلمِ: أَنَّ الاستقامةَ أَعظمُ كرامَةً، بَلْ سَبَقَتِ الكرامةَ في حالِ القربِ والوصولِ إِلى عَلَّامِ الغُيوبِ. نَعَمْ، قَدْ ذَكرَ بَعضُ المُؤرخينَ الثِّقات، أَنَّ أَتباعَ الشَّيْخِ ـ وهُم الَّذينَ عُرفوا بِالبطائحيَّةِ ـ كانَتْ تَجري عَلى أَيديهِمْ بَعضُ الأَحوالِ والكراماتِ، كالوقوفِ وسطَ النيرانِ، وأَكلِهِم الحيَّاتِ الحيَّةَ دونَ أَنْ يُصيبَهُمْ أَذىً.

❁ ❁ ❁

ومِمَّا لا ريبَ فيهِ، أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ، أَيدَهُ اللهُ بِروحٍ مِنْهُ، ومَنحَهُ مِنهُ قُوَّةَ التَّأثيرِ عَلى الآخرينَ مَهما كانَ شَأنُهُمْ في الحياةِ، لِوَرعِهِ واجتهادِهِ في العبادةِ، ولِإخلاصِهِ في دينِ اللهِ، وأَيضاً لِعلمِهِ الجَمِّ والوافرِ، فَكانَ مِنَ الرَّاسخينَ في العلمِ الَّذينَ يَعلمونَ أَسرارَ الكتابِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرةِ، فَكانَتْ مواعظُهُ تتَغلغَلُ في النُّفوسِ الباليَةِ الهَشَّةِ، وتَنفذُ في القلوبِ والعُقولِ الصَّدئةِ، كما يَنفذُ الغيثُ في الأَرضِ القاحلةِ فَيُحيلُها نَضرةً حُلوةً خَضرةً تَسرُّ النَّاظرينَ، فَقَدْ أَرسلَ إِليهِ الخليفَةُ العبَّاسيُّ «المُسْتنجدُ بِاللهِ» حاجبَهُ الخاصَّ يَحملُ إِليهِ رِسالةً يَسأَلُهُ النُّصحَ فيها، فَقَالَ يُظهرُ افتقارَهُ وحاجَتَهُ إِلى النَّصيحةِ: «أَسأَلُكَ بِاللهِ أَنْ تُكثرَ مِنَ النَّصيحَةِ لي بِجوابِكَ، فَإِنِّي في حاجةٍ لِنَصيحَتِكَ، وأَيِّ نَصيحَةٍ ولا ريبَ عندي بِحصولِ بَركةِ نُصحِكَ لي إِنْ شاءَ اللهُ».

فَكتبَ إِليهِ الشَّيْخُ أَحمدُ موعظةً طَويلَةً يَحضُّهُ فيها عَلى اتِّباعِ تَعاليمِ الإِسلامِ، والتزامِ أَحكامِهِ، وتَوخي العدلِ بينَ الرَّعيَّةِ لأَنَّهُ سبيلُ النَّجاةِ والفَلاحِ، وكانَ مِنْ جُملةِ ما كتبَ لَهُ الشَّيْخُ قطبُ الأَولياءِ: «وأَنتَ تَدري يا أَميرَ المُؤمنينَ أَنَّ ابن عَمِّكَ إِمامَ المُسلمينَ عَليّاً كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ، حَدَّثَ عَنِ ابن عَمِّهِ سَيِّدِ المَخلوقينَ: «لَنْ تُقدَّسَ أَمَّةٌ لا يُؤخذُ لِلضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ القَويِّ غير مُتعتعٍ» والأَمرُ واللهِ كَذلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ الخليفةَ «المُستنجدَ» لَمَّا وَصلَهُ كتابُ الشَّيْخِ، قَرأَهُ وبَكَى، ثُمَّ قرأَهُ وبَكَى، ثُمَّ قَرأَهُ وبَكَى. وقالَ: واللهِ إِنَّ في لِسانِ السَّيِّدِ أَحمدَ نَغمةٌ مِنْ لِسانِ جَدِّهِ رَسولِ اللهِ ﷺ، ولا شَكَّ! فَهوَ بَركةُ بِلادِ اللهِ اليَومَ.

وقَدْ أَجمعَ المُؤَرِّخُونَ على أَنَّ الشَّيخَ أَحمدَ الرِّفاعيَّ تُوفِّي في قريَةِ أُمِّ عبيدةَ في أرضِ البَطائِحِ مسقطِ رأَسِهِ سنةَ (578) هجريَّةً ودُفنَ فيها، ومازالَ قَبرُهُ هُناكَ يُزارُ إِلى يَومِنا هذا، وقَدْ جُمعَتْ أَقوالُ الشَّيْخِ رَحمهُ اللهُ تَعالَى وحِكمُهُ ومَجالسُ وَعظِهِ في عدَّةِ كُتبٍ مِنها:

الكتابُ الجليلُ «البُرهانُ المُؤيّدُ» وهوَ أَهمُّ كُتبِهِ عَلى الإِطلاقِ، ومِنها كتابُ «مَجالس أَهلِ الحقيقَةِ»، ومنها كتابُ «الحِكم» وهَذِهِ الكُتبُ الثَّلاثةُ مَطبوعةٌ ومُتوفِّرةٌ بينَ الأَيدي لِمَنْ يُريدُ قراءَتَها أَو الاطِّلاعَ عليها، كَما لا يَزالُ لَهُ مَلايينُ الأَتباعِ يَنشرونَ طَريقَتَهُ في كافَّةِ أَنحاءِ المَعمورةِ، فَرحمَ اللهُ قِطبَ الأَولياءِ، وسَيِّدَ العارفينَ، وجزاهُ عَن الإِسلامِ والمُسلمينَ ما هوَ أَهلٌ لَهُ.

قالَ اليافعيُّ في كتابِهِ المَعروفِ «مرآةِ الجنانِ وعبرةِ اليَقظانِ» في ترجمةِ الشَّيْخِ أَحمدَ الرِّفاعيِّ: «شَيخُ الشُّيوخِ الَّذي مُلِئَتْ شهرتُهُ بِالمشارقِ والمَغاربِ، تاجُ العارفينَ، وإِمامُ المُعرِّفينَ، ذو الأَنوارِ الزَّاهرةِ، والكراماتِ القاهرةِ، والمَقاماتِ العَليَّةِ والأَحوالِ السَّنيَّةِ، والبَركاتِ العامَّةِ، والفَضائِلِ الشَّهيرةِ بينَ الخاصَّةِ والعامَّةِ».

ومِنْ أَقوالِ سَيِّدِنا الشَّيْخِ أَحمدَ الرِّفاعيِّ رَحِمَهُ اللهُ الرَّائعةِ والَّتي تُعتبرُ نبراساً لِكُلِّ مَنْ يُريدُ أَنْ يَسلكَ الطَّريقَ المُوصلَ إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«سَلكتُ كُلَّ الطُّرقِ الموصلةِ، فَما رأَيتُ أَقربَ ولا أَسهلَ ولا أَصلحَ مِنَ الافتقارِ والذُّلِّ والانكسارِ» فقيلَ لَهُ: يا سَيِّدي، كيفَ يكونُ؟ قالَ: «يُعَظِّمُ أَمرَ اللهِ، ويَشفقُ عَلى خَلقِ اللهِ، ويَقتدي بِسنَّةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ومِنْ شعرِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قولُهُ:

إِذا جَنَّ ليلي.. هامَ قلبي بِذكرِكُمْ أَنوحُ كما ناحَ الحمامُ المُطوِّقُ

وفَوقي سَحابٌ يُمطرُ الهمَّ والأَسَى و تَحتي بِحارٌ بِالأَسَى تَتدَفَّقُ
سَلوا أُمَّ عَمرٍو كيفَ باتَ أَسيرُها؟ تَفكُّ الأَسارَى دونَهُ وهوَ مُوثَقُ
فَلا هوَ مَقتولٌ فَفي القَتلِ راحةٌ ولا هوَ مَمنونٌ عليهِ فَيُطلَقُ